جدلية التلقي والتأويل في الخطبة السياسية

بين علي بن أبي طالب والحجاج بن يوسف

دكتور

لمياء عبد الحميد القاضي

مدرس الأدب العربي القديم

كلية الآداب – جامعة بني سويف

جدلية التلقي والتأويل في الخطبة السياسية

(بين علي بن أبي طالب والحجاج بن يوسف)

تمهيد :

لم يحظ النثر الفنى في الدراسات الأدبية بنفس القدر الذي حظي به الشعر، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة كل فن من الفنين من حيث التنوع الدلالي والإيقاع والخيال، إذ كانت الدراسات الأدبية أكثر اهتماما بالنص الشعري الذى يتمتع بالتكثيف الدلالي والغنى التصويري والإيقاعي، من هنا كان اهتمام هذا البحث بفن من فنون النثر ممثلا في الخطبة، بهدف أن يكون فيه إثراء للدراسات الأدبية المهتمة بالنثر .

وقد رأينا في الخطابة السياسية جانبا مهما يكشف ذلك الأثر البعيد والقوي للخطبة في نفس المتلقي ، كما يعكس جانبا من شخصية الخطيب ومبادئه التى يتطلع بها إلى التأثير في نفس المتلقي ، وإذا كانت الخطبة قرينة المشاهدة، فهذا لا يعنى أن تناول الخطبة كنص أدبي لا يمكّننا ونحن بعيدون عن وقت إلقائها، أن نظفر منها بتحليل أدبي ذى قيمة ، ولكن يعوزنا – بالضرورة – معرفة المناسبة التى قيلت فيها تلك الخطبة وما أحاط بها من ظروف قدر الإمكان، وهنا يبدو فارق كبير بين الخطبة والقصيدة، حيث تبدو دراسة القصيدة أسهل من دراسة الخطبة إذ ليس بالضرورة أن تكون هناك مناسبة للنص الشعري في حين ترتبط الخطبة حتما بمناسبة ما، فالشاعر ينظم في أى وقت ولا يتطلب منه الأمر وجود مناسبة تحثه على الاحتشاد لنظم قصيدة، حيث يكفيه أن تنتابه حالة شعورية محفزة.

وبالإضافة إلى معرفة مناسبة الخطبة فإنه تجب مراعاة مواجهة الجمهور في الخطبة، إذ تتجلى البلاغة في أوضح صورها، حيث مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فكلما راعى الخطيب حال المخاطبين والظروف المحيطة بهم، كان مؤثراً فيهم. إذ أن

الخطيب عليه أن يتفاعل مع محيطه بشكل جيد، وأن يكون واعيا بمعطيات العصر وعيا يتحقق في خطبته، مؤثرا في سلوكه اللغوي وغير اللغوي؛ فيظهر خطابه محددا بإطار ظاهر ومصيبا الهدف المرجو منه. وسنقف في هذا البحث بين ثنائيتي التلقي والتأويل، فيكون التلقي هو استيعاب المتلقي الأول للخطبة وتفاعله معها، وانطلاقا من هذا المفهوم وعلى ضوئه يأتي التأويل كمرحلة ثانية يعكس استيعاب المتلقي الثاني "أومن سنطلق عليه المتلقي الافتراضي" فيطالعنا الدور الحِجاجي وبعض آلياته من جهة ، ورد فعل المستمعين من جهة ثانية وما أحاط الخطبة من ظروف من جهة ثالثة.

علي بن أبى طالب :

على الرغم من شهرة علي رضي الله عنه بالشجاعة في الحروب، ومن كونه ابن عم النبى (ρ) وصهره، إلا أن كل ذلك لم يرشح علياً ليكون أول الخلفاء الراشدين، حيث كانت الشورى بين المسلمين قد اختارت أبا بكر فعمر فعثمان، وحتى بعد أن اختير خليفة نجد العديدين من كبار الصحابة وقد انفضوا من حوله فلم يبايعوه بالخلافة ، وكأن تلك المجموعة وعت شجاعة علي، ولكنها رأت فيه قلة الدراية السياسية الكافية لقيادة الدولة، ولعلنا نجد سندا لقولنا هذا في قول ابن عباس له بعدما نصحه بأن يهادن معاوية ويقره على ولاية الشام حتى يبايعه فقال ابن عباس لعلي في ذلك " فإن بايع لك – يعنى معاوية ، فعلى أن أقتلعه لك من منزله متى شئت، فرد علي : والله لا أعطيه إلا السيف فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع ولست صاحب رأي[1] ولموقف علي في معركة صفين ما يدعم تلك النظرة، عندما نزل على رأي طالبي التحكيم عندما رفضوا أن يكون ابن عباس هو المحكم من جهة علي– وكان علي هو من رشحه– وطالبوا بأن يكون الممثل لهم في التحكيم أبا موسى الأشعرى، الذى انتهى به التحكيم أمام عمرو بالحياء من الناس ونزوله إلى مكة، فيما

انطلق عمرو بن العاص وأهل الشام إلى معاوية ، فسلموا عليه بالخلافة ، ومن ذلك الوقت أخذ أمر على في الضعف، وأمر معاوية في القوة[٢].

ويورد لنا الطبري رأيا يدعم الفكرة ذاتها، فبعد انتهاء التحكيم لقي على رجلا من الأنصار بالقرب من الكوفة فسأله علي "ما سمعت الناس يقولون في أمرنا فقال منهم المعجب به ومنهم الكاره له، كما قال عز وجل " ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك، فقال على: فما قول ذوى الرأى فيه؟ قال: أما قولهم فيه فيقولون: إن عليا كان له جمع عظيم ففرقه، وكان له حصن حصين فهدمه، فحتى متى يبني ما هدم، وحتى متى يجمع ما فرق، فلو أنه كان مضى بمن أطاعه، إذ عصاه من عصاه فقاتل حتى يظفر أو يهلك إذًا كان ذلك الحزم"[٣]. لقد كانت الحنكة السياسية تنقص عليا رضي الله عنه، فنراه يستخدم اللين في مواطن تستحق الشدة، أو الشدة في مواطن تحتاج اللين.

الحجاج:

الحجاج بن يوسف الثقفي، كتب لقاؤه بروح بن زنباع وزير الخليفة عبد الملك بن مروان وصاحب شرطته شهادة ميلاد جديدة له ، فإذا كان قد ولد في الطائف " ٤١/٤٠ هـ حسب اختلاف الرواة " وحفظ بها القرآن ثم صار معلما للصبيان كأبيه أحد وجهاء ثقيف، إلا أن مغادرته لمسقط رأسه وتوجهه نحو دمشق وإثبات الكفاءة لابن زنباع الذي كان طريقه إلى عبد الملك بن مروان فضبط له جيشه ، فكان ذلك هو شهادة ميلاد للحياة التى كان ينشدها ويهيئ نفسه من أجلها ، لا تلك الحياة التى عاشها أولا فلم ترض طموحه ولم تتسق مع أحلامه وتطلعاته.

وقد اكتسب الحجاج حصانة منحه إياها عبد الملك بن مروان، فكانت سندا وداعما في كل خطوة خطاها، وفي كل قرار اتخذه يظهر ذلك فيما أطلعنا عليه صاحبا العقد الفريد والبداية والنهاية[٤] عندما نكَّل الحجاج بفسطاط روح بن زنباع،

فعندما شكا عبد الملك لروح أن الجيش لا ينزلون ولا يرحلون لرحيله ، فقال روح: عندي رجل توليه ذلك، فولى عبد الملك الحجاج أمر الجيش، واستطاع الحجاج بسياسة الشدة أن يطوّع العسكر لأمر الخليفة، حتى الفسطاط الذى كان تابعا لروح بن زنباع لم يسلم من التنكيل وإحراق الفسطاط مما حدا بروح أن يشكو الحجاج للخليفة: "فقال للحجاج: لم صنعت هذا؟ فقال لم أفعله، إنما فعله أنت، فإن يدي يدك، وسوطى سوطك، وما ضرك إذا أعطيت روحا فسطاطين بدل فسطاطه، وبدل الغلام غلامين، ولا تكسرني في الذي وليتني؟ ففعل ذلك وتقدم الحجاج عنده. " ومنذ ذلك الحين والحجاج اليد الباطشة للدولة الأموية، فقضى تماما على الحزب الزبيري بقتل مصعب ثم عبد الله ابني الزبير، فاسترد الأمويون الحجاز والعراق، وتولى الحجاج إمرة الحجاز ثم وجهه عبد الملك لتولي العراق ذلك الإقليم دائم الشغب والتمرد، فظل واليا مسيطرا عليه طيلة عقدين إلى أن مات عام ٩٥هـ. لقد وطّن الحجاج نفسه وهيأها كي يكون رجلا من رجال الدولة الأموية، من ذلك ما نجده في ثقافته الدينية فمع حفظ القرآن نجده روى الحديث عن أنس بن مالك وسمرة بن جندب وعبد الملك بن مروان[٥]. لقد اختار أحد الكبار من أبناء بني أمية ليروي عنه وكأنها ورقة يريد أن يضيفها الى ملف سيرته الذاتية – كما نقول اليوم – فتكون مرشحة له للعمل في البلاط الأموي، كما نجد في سيرته ما يدل على كونه يعد نفسه ليكون بوقا من أبواق الدولة لتضليل الناس لئلا يخرجوا على الخليفة، وفي الخبر التالى ما يدل دلالة قطعية على ذلك: "كان الحجاج مع أبيه بمصر في جامعها، فاجتاز بهما سليم بن عتر التجيبي– قاضى مصر وأحد كبار التابعين –، فنهض إليه أبو الحجاج فسلم عليه ..... وبعدما انصرف سليم قال الحجاج لأبيه: يا أبت أتقوم لرجل من تجيب وأنت ثقفي؟ فقال له: يا بني والله إني لأحسب أن الناس إنما يرحمون بهذا وأمثاله. فقال الحجاج: والله ما على أمير المؤمنين أضر من هذا وأمثاله فقال: ولم يابني؟ قال: لأن هذا وأمثاله يجتمع الناس اليهم فيحدثونهم عن سيرة أبي بكر وعمر، فيحقر الناس سيرة أمير

المؤمنين ولا يرونها شيئا عند سيرتهما ، فيخلعونه ويخرجون عليه ويبغضونه ولا يرون طاعته ، والله لو خلص إلي من الأمر شيء لأضربن عنق هذا وأمثاله. فقال له أبوه يا بني، والله أني لأظن أن الله عز وجل خلقك شقيا[٦]"

ففي الخبرين ما يشي بأنه كان يمهد نفسه ويأمل في أن يكون من رجال بني أمية.

نص الخطبتين:

أولا: خطبة للإمام علي كرم الله وجهه[٧]:

بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال :

أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجُنته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل، وشمله البلاء، ودُيث بالصغار والقماء، وضُرب على قلبه بالأسهاب "الأسداد" وأُديل الحق منه بتضييع الجهاد، وسيم الخسف، ومُنع النصف.

ألا وإني دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا، وسرا وإعلانا، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غُزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلّوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنّت عليكم الغارات، ومُلكت عليكم الأوطان.

وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار، وقد قُتل حسان بن حسان البكري وأزال خيلكم عن مسالحها ، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة ، فينزَع حُجلها وقلبها وقلائدها ورعاثها ، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام.

ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كَلْمُ ، ولا أُريق لهم دم، فلو أنّ امرأً مسلما مات من بعد هذا أسفا ما كان به ملوما بل كان عندي جديرا.

فيا عجباً، عجبا والله يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ، وتفرقكم على حقكم !! فقبحا لكم وترحا حين صرتم غرضا يُرمى، يُغار عليكم ولا تُغيرون، وتُغْزَون ولا تَغْزُون، ويُعصى الله وترضون!!

فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الصيف قلتم : هذه حَمَارَّةُ القيظ أمهلنا يُسْبَّخْ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم : هذه صَبَارَّةُ القر، أمهلنا ينسلخْ عنا البرد ،كل هذا فرارا من الحر والقر ، فأنتم والله من السيف أفرّ.

يا أشباه الرجال ولا رجال ! حلوم الأطفال وعقول رَبّات الحجال ، لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم ! قاتلكم الله!! لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظا، وجرعتموني نغب التهمام أنفاسا، وأفسدتم عليّ رأيى بالعصيان والخذلان ، حتى قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب.

لله أبوهم!! وهل أحدُ منهم أشدُّ لها مراسا وأقدمُ مَقاماً مني ؟! لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وهأنذا قد ذرَّفت على الستين ، ولكنْ لا رأىَ لمن لا يُطاع"

ثانيا : خطبة الحجاج عندما ولي الكوفة:[٨]

حدث عبد الملك بن عمير الليثي بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه إذ أتى آت فقال هذا الحجاج قد قدم أميرا على العراق فإذا به دخل المسجد معتمّا بعمامة قد غطي بها أكثر وجهه متقلدا سيفا متنكبا قوسا يؤم المنبر فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر فمكث ساعة لا يتكلم فقال الناس بعضهم لبعض قبح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق حتى قال عمير بن ضابىء البرجمي ألا أحصبه لكم فقالوا أمهل، حتى نظر فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

ثم قال يا أهل الكوفة أما والله إني لأحمل الشر بحمله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله، وإني لأري أبصارا طامحة وأعناقا متطاولة ورؤسا قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق ثم قال :

هذا أوان الشد فاشتدي زيم قد لفها الليل بسواق حطم

وقد شمرت عن ساقها فشدوا وجدّت الحرب بكم فجدوا

و القوس ليس فيها وتر عرد مثل ذراع البكر أو أشد

لابد مما ليس منه بد

إني والله ياأهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوي الأخلاق ما يقعقع لي بالشنان ولا يغمز جانبي كتغماز التين ولقد فُررت عن ذكاء وفُتشت عن تجربة وجربت إلى الغاية القصوى، وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرّها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم في الفتن ، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي، أما والله لألحونكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأحْزمَنَّكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. وإني والله لا أعد إلا وفيت، ولا أهُمُّ إلا أمضيت ولا أخْلُقُ إلا فريت، فإياي وهذه الشفعاء والزرافات والجماعات وقالا وقيلا وما تقول وفيما أنت وذاك، أما والله لتستقيمُن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه. يا غلام: اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ؛ فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم .. من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من

المسلمين، سلام عليكم... فلم يقل أحد منهم شيئا، فقال الحجاج: اكفف يا غلام.. ثم أقبل على الناس فقال : أسَلَّم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئا؟! هذا أدب نِهية، أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن. اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين، فلما بلغ إلى قوله سلام عليكم، لم يبق في المسجد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام."

علي والحجاج (يأس خليفة وبطش والٍ)

يرجع اختيار نموذجي علي والحجاج كخطيبين سياسيين ، إلى ما امتازا به من الطلاقة من حيث هى القدرة على إنتاج الأفكار وإبداع العبارات والكلمات، مما يشير الى قدرة عقلية فاعلة تتم عن سيولة الأفكار وسهولة توليدها . ولكننا نتوقف عند نمط تلقي الجمهور لتلك الخطب .

لقد جمع خيط واحد بين الكثير من خطب على والحجاج في أهل العراق ، وهذا الخيط هو موقف الخطيبين من الجمهور، إذ كانت مشاعرهما مشاعر عدم الرضا عن المخاطبين مع اختلاف موقف الجمهور من الخطيبين ، فعلي رضي الله عنه كان يتكلم إلى أنصاره ، بينما كان الحجاج يتكلم إلى معارضيه.

إن العذاب الواقع على أهل العراق الذين خذلوا عليا رضى الله عنه واقع عليهم من الله سبحانه وتعالى بلا وسطاء فمن ترك الجهاد فرارا منه خوفا أو كرها : ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء، وديث بالصغار والقماء وضرب على قلبه بالاسدادواديل الحق منه بتضييع الجهاد وسيم الخسف ومنع النصف "

لن يكون لهذا العصيان والخروج على أمر الله والخليفة إلا عقوبة من الله وحده، تنزل بهؤلاء العصاه على يد الأعداء ولن يكون لعلي أي سلطان في أن يكون هو المنفذ لتلك العقوبة. وفي استخدام علي لتلك الأفعال المبنية للمجهول (ضُرب –

أُديل –سيم –مُنع) التى حذف الفاعل للعلم به ، فالأمر موكل لله سينفذه على يد الإعداء ، ويكتفي علي بدور الناصح (ألا وإني دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم[٩] ليلا ونهارا، وسرا وإعلانا وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم، فو الله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا).

لقد دعاهم لضرورة قتال أولئك القوم وأسدى لهم نصيحته بشتى الطرق وفي كل الأوقات. وعلي هنا في استخدامه للطباق بين (ليلا ونهارا) و (سرا و إعلانا) صنع تشبيها ضمنيا يشدنا الى حال نوح مع قومه ، فلكأنهم قوم نوح المعاندون المتبلدون، وهو نوح في صبره على قومه واتخاذه كل الوسائل لدعوتهم ومن هنا نجده بعد ذلك يدعو عليهم كما دعا نوح على قومه، فهو تارة يقول لهم " قبحا لكم وترحا " وتارة أخرى يقول لهم " قاتلكم الله " وقد يكتفي بالاسترجاع لما أصابه من المصائب بسببهم فيردد في خطبة أخرى قول "إنا لله وإنا إليه راجعون"

لقد تتابعت الغارات على كل ما كان تحت إمرة علي رضي الله عنه، وظل يخطب الناس ويستحثهم على الخروج للقتال فيتقاعس عنه أولئك الناس فلا يأتمرون بأمره .

لقد كان علي بن أبى طالب خليفة بايعه الناس، عدا معاوية بن أبي سفيان ومن والاه وبعض الصحابة الذى اعتزلوا الفتنة، بينما كان الحجاج واليا للخليفة عبد الملك ، إلا أننا نلحظ أن طبيعة الخطاب تختلف تماما.

ويبدو الشبه واضحا بين طريقة الحجاج وابن المقفع فخطبة الحجاج من نمط كلمة يزيد بن المقفع في جلسة التشاور حول عقد ولاية العهد ليزيد بن معاوية فكانت له خطبة أعجبت معاوية عندما أذن للوفود بالدخول عليه لمبايعة يزيد بن معاوية، حيث رد ابن المقفع على المتشككين في صلاحية يزيد بن معاوية لتولي الخلافة بعد أبيه بخطبة قصيرة تكاملت فيها الكلمة والإشارة، قام يزيد بن المُقفّع فقال: أمير

المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية فإن هلك فهذا وأشار إلى يزيد فمن أبى فهذا وأشار إلى سيفه. فقال معاوية: اجلس فإنك سيّد الخطباء فمن أبى فهذا (وأشهر سيفه)[١٠]" لقد كانت كلمات خطباء الأمويين ، أميل إلى روح القمع لا الإقناع والحوار.

إنّ خطورة الخطبة السياسية كما مارسها الحجاج أنها كانت وسيلة من الوسائل القمعيّة التي تمارسها السلطة – تلك السلطة المخولة له من قِبل الأمويين–، والتي استطاع الحجاج أن يتحكم فيها من التنظيم الداخلي لكل كلمة وتعبير استخدمه، فنلقاه يزرع الخوف مرة و يهدد بالإقصاء والاستبعاد مرة ،والقتل أو الحرمان من النعيم، وذلك من خلال تقنيات لغوية وغير لغوية بإقامة مساحة من الصمت، والاحتجاب، ومساحات من التوضيح و الإفصاح وضرب الأمثلة.

ولنقرأ ما خاطب به الحجاج الخارجين على أوامر خليفته :"وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا وأصلبها مكسرا، فرماكم بى ، لأنكم طالما أوضعتم في الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي، أما والله لألحونكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأحزمنكم حزم السلمة ولاضربنكم ضرب غرائب الابل"

الحجاج هو من سيوقع العذاب بأولئك المتمردين أصحاب الفتن، وهو لا يكتفي بأن يبين لهم حقيقتهم كما يراها هو من أنهم أهل ضلال وفتن وخروج عن طريق الحق، بل إنه يردف ذلك بالعقاب الذى سيوقعه هو بهم، عن طريق إيراد وحشد عدد من الأفعال المرتبطة بالشدة والعنف، مع إسنادها لفاعل معلوم (الحجاج نفسه) وتوكيدها باللام والنون (لألحونكم–لأقرعنكم–لأحزمنكم– لأضربنكم). وهو في إيراده لهذه الأفعال قدم مبرراته في الإيذاء الشديد الذى سيطالهم ، فلما آنس الخليفة منكم خروجا عن الطاعة وسيرا حثيثا نحو طريق الفتنة وارتماء في أحضانها؛ وجهنى إليكم. مستخدما الفعل (رماكم بي) ليتناسب تماما مع وصف نفسه وبقية رجال الخليفة بسهام

في كنانة عبد الملك بن مروان. وعندما يستوحي معاني القرآن الكريم فإنه لا يجنح إلى استخدام تشبيه يفهم من سياق الكلام، كما فعل على رضي الله عنه، بل إنه يقتبس نصا مباشرا من القرآن الكريم فيه حِجاج – أو مبرر آخر– لما سيلحق أهل العراق من العذاب، موظفا النص الديني توظيفا متقنا يقيم به الحجة على هؤلاء المعارضين

(فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون)

لقد حفظ الحجاج القرآن، وروى الحديث عن أنس بن مالك وسمرة بن جندب، مما وفر له مرجعية قوية أمدته بالبلاغة من جهة كما ساعده حفظ النصوص الدينية على التوظيف الجيد لها، متى شاء وكيف شاء. استخدم الحجاج بذلك خطابا يتسم بالسمة الإقناعية التى ينشد من خلالها أن يغير معتقدات الخصوم ، ويرسم لهم طريقا ينبغى أن يسيروا عليه مستخدما المبررات والحجج التى يرى أنها تلائم نفسية المتلقين[١١]، وهذه المناسبة لحال المستمعين تجمع أيضا مناسبة حال الثقافة الدينية والثقافة العربية الاجتماعية حيث فكرة (لحو العصا وقرع المروة وحزم السلمة وضرب غرائب الابل)

وقد يأتى التأويل ههنا ليلعب دورا في تحليل هذا الخطاب حيث نجد إننا بحاجة إلى إرجاع معنى المفردات إلى ما وراء ذلك المعنى المصطلح عليه؛ حتى نصل إلى معنى المعنى[١٢]. ولعل هذه مرده إلى تلك المسافة الزمنية التى أبعدتنا – كمتلقين افتراضيين[١٣] – عن السياق العام للخطبة من حيث الثقافة والظروف الاجتماعية وحتى البعد النفسي . وهو مصطلح يقترب نوعا ما من مفهوم المتلفظ المشارك المستمع، والمتلفظ المشارك القارئ Coénonciateur[١٤]

حيث تستوقفنا التشبيهات التالية (لحو العصا – حزم السلمة ثم ضرب غرائب الإبل)

فلحو العصا لتهذيبها من الزوائد الخارجة عنها لتسويتها، وحزم أو ضم عيدان السلمة ضما شديدا من خلال ربطها؛ حتى يبعد الأذى الحاصل من أشواكها، وينفصل عنها الجزء المفيد، وهو الأوراق التى تتساقط لتتغذى عليه الأنعام، ثم ضرب غرائب الإبل حتى تبتعد عن بقية القطيع الواحد المتوافق؛ لتدعه يهنأ وحده بالماء، كلها رموز لمعاني متسقة يفضي بعضها إلى بعض، إنها صور متعددة رسمها الحجاج ليقدمها للمتمردين، لا يقف فيها عند معنى الشدة التى سيتعامل بها معهم وحسب، بل هي مفردات قد حملت العديد من الرموز، ونضيف إلى ذلك تلك الروح البدوية التى سيطرت على الخطبة منذ بدايتها باستلهام الشعر البدوي، والصور البدوية، والتعبيرات البدوية، حتى يضيف إلى شدة المعانى، شدة الألفاظ؛ فتكتسب الخطبة كلها روح الجفوة والشدة والبطش التى يحملها الرجل البدوي الجافي[١٥]

إنها قراءة للنص نحاول من خلالها النفاذ إلى بعض أبعاد النص الإشارية والرمزية[١٦]

التوجه الحِجاجي :

يمثل الحِجاج حجرا أساسيا في بنية الأسلوب الخطابي، إذ أن الخطابة مؤسسة على بنيات ذات أشكال مؤثرة في المستمع لأن غايتها إقناعه ببنيات مصنوعة قصدا لتحصيل الاستجابة[١٧]حيث يهدف الخطيب إلى إيصال فكرته ، لذا فإنه يوظف كل ما يمتلك من مؤثرات تضمن له انصياع المتلقي . من هنا يركن الخطيب إلى سوق الحجج والبراهين على صدق توجهه ليكون أكثر تأثيرا .

ففي خطبة علي نجده يعتمد على تقنية الحوار ويستخدمه بطريقتين: الأولى: بشكل حوار (فعل ورد فعل)، والثاني هو الصورة المألوفة للحوار بين طرفين. فمن النوع الأول:" وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا ، فتواكلتم وتخاذلتم ... "

لقد ذكَّر علي أنصاره بحوار جرى بينه وبينهم حاول فيه إقناعهم بالخروج لقتال أنصار معاوية، وحذرهم من مغبة الجبن المؤدية إلى الهزيمة في عقر الدار، وكان هذا العرض للحوار الذى دار بين علي وأنصاره قد بدا في شكل النصح والإرشاد إلا أن رد الفعل الذى كان منهم (تواكلتم – تخاذلتم) وجاء بالفعلين معطوفين للدلالة على التدرج في الضعف الذى كان عليه أصحابه، فالتواكل يأتي أولا ، فكلٌ يلقي بالمسئولية على الآخر لأنه يحب ان يهرب منها ، ثم يأتي بعد ذلك التخاذل.

اما النوع الثاني من الحوار وهو الذى يجري بين الطرفين من قول ورد عليه.

"فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الصيف قلتم : هذه حمارة القيظ أمهلنا يسبخ عنا الحر، واذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صبارة القر ، أمهلنا ينسلخ عنا البرد ، كل هذا فرار من الحر والقر ، فأنتم والله من السيف أفر".

دفع علي رضي الله عنه بمحاولته لإقناع أنصاره بضرورة الجهاد، فقدموا له مجموعة من المعاذير الكاذبة وهنا قدم علي رضي الله عنه تلك الأعذار على أنها مجموعة من البراهين والحجج ليقيمها عليهم ، في محاولة لتبصيرهم بحقيقتهم لعلهم يتجاوزون تلك الحالة المخزية .

فبينما علي في حالة من اليأس من تلك الحالة التى عليها أصحابه وكيف عصوه، فلم يصدر منه رد فعل عنيف حاسم حيث يكتفي في هذا الموقف بالتوبيخ المجرد واصفا إياهم بـ" يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال. لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم."

في موقف مشابه يخاطبهم بقوله "لا أحرار عند النداء ولا إخوان ثقة عند النجاء"[١٨].

وعلى طرف نقيض لموقف علي يقف الحجاج مقدما أدلته وبراهينه التي بها يريد أن يبصر أهل العراق بحقيقتهم فهم (طالما أوضعتم في الفتن واضطجعتم في مراقد

الضلال وسننتم سنن الغي) مما يجعل رد فعله تجاههم ردا قاسيا من لحو وقرع وحزم وضرب .

وفي محاججته لهم يرتدي الحجاج عباءة الدين ليحاول من خلاله إدخال الخوف على نفوسهم وذلك بتقديم حجته المستمدة من القرآن " فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . "

ولكن استخدام القرآن وهو النص الديني المقدس لا يقبل جدلا فما يرد فيه يقيني وملزم، من هنا اختار الحجاج توظيف النص الديني حتى يبث في روعهم التطابق بين حالهم وحال من ذكرتهم الآية. ويعد استخدام النص الديني أحد أهم وسائل الإقناع وإقامة الحجة ، فهو عندما يقدم اقتباسا مباشرا من القرآن، فإنه يقدم سندا قويا لأطروحته من أجل الوصول إلى إقناع المتلقين بما سيتخذه حيالهم إن لم ينصاعوا، وفي استخدام الحجاج لهذه الآية – تحديدا دون غيرها من آيات العذاب التى تحل بالعصاة– ما يرجعنا إلى الإطار الذى سيقت فيه الخطبة وهذا ما سنتناوله بالحديث في النقطة التالية.

مما يهمنا رصده من أدوات الحجاج في الخطبتين، استخدام التوكيد والذي يرتكز استخدامه على نوعية المتلقين ومدى تصديقهم أو تكذيبهم للخطيب، فنلاحظ في خطبة علي قلة استخدام القسم كأحد أبرز أوجه التوكيد؛ فهو يعي أنه يخاطب مجموعة من الموالين له أي أنهم لا ينكرون ما يخاطبهم به ويكاد يكون استخدام طرق التوكيد على أمور تخلي مسؤوليته عن أعمالهم، – وكأنه يقيم بها الحجة عليهم أمام الله بوصفه خليفة رسول الله– ومن ذلك: فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ... للتوكيد على أهمية قيمة الجهاد"

"ألا وإني دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم...." ، "فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا...." إنه يحاول أن يبرئ ذمته فيكتفي بالتذكير والنصح، ثم بتبصيرهم بحقيقة نفسياتهم الجبانة المتخاذلة في قوله:" فأنتم والله من السيف أفر."

أما التوكيد في خطبة الحجاج فهو من أبرز السمات الحِجاجية في الخطبة؛ إذ يتوجه بالحديث إلى مجموعة من المنكرين لخلفاء بني أمية وولاتهم، فأهل العراق على خلاف مع الدولة الحالية وكل رموزها، لذا فمن المنطقي أن يكون التوكيد حاضرا بقوة في معرض كلامه متمثلا في" القسم، وإنّ، ولام التوكيد ونونها، وقد" وتبدو تلك الآلية الحِجاجية في أشد صورها منذ توجه لهم بالكلام عندما حشد أكثر من مؤكد في الجملة الواحدة" أما والله إني لأحمل الشر ..... وإني لأرى أبصارا طامحة.... وإني لصاحبها" ويفرط الحجاج في التوكيد حتى يثبت صدق كلامه.

مرايا التأويل تعكس روح التلقي:

يحمل كل نص بين طياته ما يجعل آلية التأويل تسير في درب منير؛ حيث تومض بعض العبارات، وتبدو بعض الإشارات التي تحمل القارئ – أو من أطلقنا عليه المتلقي الافتراضي– على التقاط العديد من الخيوط التي تجعل عملية التأويل قائمة على أسس حقيقية تنبع من النص تارة ومن السياق المحيط به تارة أخرى، فتجتمع معا لتكون مرايا عاكسة تساهم في تأويل النص، لذا كان ذلك التواشج القائم على السياق الذي أنجز فيه الخطاب يستدعي بالضرورة كل الظروف المقامية بما فيها من زمان ومكان، واعتبارات التخاطب وغيرها من الوسائط التي يتيح "استحضارها ربط دلالة القول بسياقه، وتوجيه الذهن إلى التأويل الملائم."[١٩]

من هنا يتبادر إلى ذهن القارئ لهذه الخطبة سؤال– وهو حجر الرحى الذي تدور معه عملية التأويل– عن مدى تجاوب المتلقين مع (علي والحجاج) طالما كان الغرض الأساسي من الخطابة هو التأثير على المستمعين واستمالتهم نحو تنفيذ

قناعات الخطيب، وهنا يبرز دور التأويل الناشئ عن فهم السياق؛ لم تكن هذه الخطبة الأولى التي يتوجه بها علي لاستنهاض همم أنصاره مع إفصاحه لهم عن قعودهم وخذلانهم إياه، فنسمعه في خطبة تسبق هذه الخطبة تاريخيا يقول لهم فيها:" يا أهل الكوفة كلما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلكم ،أغلق بابه وانجحر كل امرئ منكم في بيته انجحار الضب في جحره والضبع في وجارها....."[٢٠]

لقد دأب المتلقون على اتخاذ رد الفعل ذاته للدرجة التي جعلت عليا يتخذ منهم موقفا واحدا، بحيث تتكرر المعاني نفسها في خطبه بألفاظ مختلفة، فمنها مثلا : "فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم حمارة القيظ، أمهلنا ينسلخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير في البرد قلتم أمهلنا ينسلخ عنا القر، كل ذا فرار من الحر والقر، فإذا كنتم من الحر والقر تفرون، فأنتم والله من السيف أفر"

نضع هذا النص أمام نص من خطبة أخرى" تقولون في المجالس كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلتم حيدي حياد[٢١].... أعاليل بأضاليل، سألتموني التأخير دفاع ذي الدين المطول"[٢٢]

يتكرر معنى المراوغة والمماطلة الذي يمارسه أنصار علي دوما عندما يطالبهم بالخروج للجهاد. هذا التخاذل والخذلان الدائمان هما ما يدعوان عليا رضي الله عنه إلى الدعاء عليهم وتمني انقطاع الصلة بهم: " والله لوددت أنني لم أركم ولم أعرفكم..."، وهو ذات المعنى " فرق الله بيني وبينكم .... لوددت أن بكل عشرة منكم رجلا من بني فراس بن غنم..."[٢٣]

عندما نقرأ هذه النصوص المتقاربة نشعر أننا أمام مجموعة من الأجزاء المتناثرة للوحة، نحاول تجميع أجزائها جنبا إلى جنب من خلال استرجاع عبارات النص في الأذهان، وتكتمل الصورة مرة أخرى فنراها واضحة، تُظهر بجلاء حال المخاطِب وحال المخاطَبين، فإذا كان الخطيب يائسا، واثقا من تكرار رد فعل المتلقين

تجاه ما يقول، فمن المنطقي أن يستقر ذلك المعنى ويترسخ في نفوس المتلقين. ولا يقف تأويل عبارات الخطبة وحدها ليعكس يأس علي من أصحابه، بل تأتي الجمل المباشرة لتعكس ذلك اليأس، فعلي يقرر لجمهوره هذا المعنى عندما يقول لهم :" ولكن لا رأي لمن لا يطاع"، أو رده على رجل واحد استجاب له بعد سماع الخطبة " فقام له رجل من الأزد، يقال له فلان بن عفيف، ثم أخذ بيد ابن أخ له فقال ها أنا ذا يا أمير المؤمنين لا أملك إلا نفسي وابن أخي فأمرنا بأمرك فوالله لنمضين له، ولو حال دون أمرك شوك الهراس وجمر الغضب، فقال لهما علي وأين تبلغان ما أريد رحمكما الله."[٢٤]

إن تأويل النص يفتح أفقا جديدا لاكتشاف أصول مهمة أبعد من المعنى الحرفي للمفردات[٢٥] تسهم في إظهار ما في ذهن المخاطِب كما تسهم أيضا في الكشف عن مدى تقبل المخاطبين لذلك النص.

وهنا يبرز ما في معنى التأويل من قصد؛ حيث يكون المتلقي في جدلية دائمة مع النص – الخطاب– يعيش حالة من الاتصال والتفاعل، وهو تفاعل يقود إليه بالضرورة مجموعة من العلامات– الشفرات أو القرائن – ذات دلالات محددة وممكنة تمكن ذلك المتلقي من انتقاء إحداها، مع عدم القدرة على تجاوزها إذ لا يسمح السياق بتجاوزها وإلا فسيكون المتلقي في تلك اللحظة قد أضاف نصًا مختلفا إلى النص الذي تلقاه.

وانطلاقا من المبدأ التأويلي، نستطيع أن نقف أمام مجموعة من القرائن النصية الموجودة في خطبة الحجاج والتي تمنحنا الحرية في تحديد المعاني التي يمكن أن يحتملها النص. تبدأ العملية التأويلية للنص بالإطار الذي سيقت فيه الخطبة إذ لم يكتف راوي خبر الخطبة بنقل النص، بل قدم له مقدمة غاية في الأهمية تساعدنا على استيعاب حال المخاطبين ومدخل الخطيب إليهم: حدث عبد الملك بن

عمير الليثي بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه إذ أتى آت فقال هذا الحجاج قد قدم أميرا على العراق فإذا به دخل المسجد معتما بعمامة قد غطي بها أكثر وجهه متقلدا سيفا متنكبا قوسا يؤم المنبر فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر فمكث ساعة لا يتكلم فقال الناس بعضهم لبعض قبح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق حتى قال عمير بن ضابىء البرجمي ألا أحصبه لكم فقالوا أمهل، حتى نظر فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال...."

رسم الراوي إطارا متسقا مع الروح التي حملها النص، وكأنه حرص على وضع ذلك الإطار بعد سماع الخطبة، قدم به للمتلقي الافتراضي خطوات واسعة نحو التأويل النابع من النص، فاهتمامه بذكر الحال التي كان عليها أهل الكوفة وقت حكم عبد الملك بن مروان تنم عن رغد من العيش ورفاهية، تجعلنا نتيقن من مدى بلاغة الحجاج عندما اختار من القرآن آية بعينها دون غيرها من آيات العذاب التي تطال المتمردين، باطريا النعمة والخارجين على الطاعة، إذ قرن الحجاج بمهارة واضحة بين أهل القرية الآمنة المطمئنة التي يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، حتى يلوِّح لهم من خلال نفس الآية بالعذاب النفسي" الخوف" الذي سيقع عليهم كما وقع على أهل تلك القرية بسبب الكفر بأنعم الله ، المقابل لترك الخليفة عبد الملك لهم يرفلون في تلك الحياة الهانئة حتى إذا تمردوا فسيصيبهم الحرمان من تلك النعم" الغنى والأمن"

وعند تناول الحال التي كان عليها الخطيب فنحن نعلم أن الحجاج في هذه الخطبة يهدف إلى تطويع نفوس أهل العراق الذين ساد بينهم التشيع لأهل البيت ، وكراهية الأمويين كما رصدنا في أول هذا البحث كيف كان عنيفا في تعامله مع المعارضين ، حيث رأى أن عنق العناد والتمرد لا يقطعها إلا السيف، ولأن الحجاج أحد رجال البلاغة المعدودين ،إضافة إلى كونه رجلا عسكريا محنكا، فقد أدار خطبته بروح

سياسية ، وتخطيط عميق، فمنذ البداية أراد الحجاج أن يصنع حجابا ماديا ومعنويا مهيبا بينه وبين أهل العراق؛ فالصمت حجاب يحيل الناس إلى التهامس والحذر من المجهول الصامت، أما إخفاء الوجه فهو حجاب مادي أدى بالناس إلى الضيق الممتزج بالتوجس من هذا المجهول الخفي، فعندما سألهم أكثرهم جرأة " هل أحصبه لكم؟" أشاروا عليه بالانتظار والصبر، وكان هذا الموقف السلبي منهم في مواجهة ذلك المجهول أمرا دالا على الخوف من العاقبة مما يعني نجاح أول نقاط الهجوم في تلك الخطة السياسية المرسومة، فنجحت بلاغة الصمت عندما لاحظ الحجاج العيون قد اتجهت نحوه، فلما تحقق من انتباههم ، أنهى ذلك الصمت، ليقوم بعد ذلك الكلام مقام الصمت، لقد وعى الحجاج تماما ما تطلبه الموقف من " قراءة الخطاب اللغوية وغير اللغوية "[٢٦]

فجيّش الكلمات المعبرة عن التهديد والوعيد، وحشدها ليكمل خطته لإيقاع الخوف في نفوس أولئك المتمردين، والسيطرة عليهم وإخضاعهم، فسلك سلوكا سيموطيقيا، مكّننا في هذا البحث أن نرصد ملامحه، ومن خلال تلك الممارسة ذات العلامات الدالة التي استوعبها المتلقون جيدا، فكان رد فعلهم في آخر الخطبة خير دليل على ذلك، عندما أمر غلامه بقراءة رسالة الخليفة عبد الملك بن مروان ، فقرأ :"بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين، سلام عليكم ....فلم يقل أحد منهم شيئا، فقال الحجاج: اكفف يا غلام.... ثم أقبل على الناس فقال : أسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئا؟ هذا أدب نهية، أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب، أو لتستقيمن، اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين، فلما بلغ إلى قوله سلام عليكم، لم يبق في المسجد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام." لقد وصل الحجّاج في نهاية خطبته إلى لب العملية الحجاجية كما حددها "بيرلمان" وهو الإقناع حيث اعتبره "أثرا مستقبليا يتحقق بعد التلفظ بالخطاب؛ لينتج عنه القرار بممارسة عمل معين ،أو اتخاذ موقف ما سواء بالإقدام أو الإحجام."[٢٧]

شتان بين رد فعل جمهور علي بن أبي طالب وجمهور الحجاج على الرغم مما عرضناه من موقف الجمهور من كل من الخطيبين. ولعل فيما رواه مالك بن دينار ما يقدم لنا قراءة لبلاغة الحجاج الذي امتلك كافة أدوات الخطاب " ما رأيت أحدا أبين من الحجاج، إن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق، وصفحه عنهم ،وإساءتهم إليه حتى أقول في نفسي إني لأحسبه صادقا، وإني لأظنهم ظالمين له"[٢٨] لقد فاز الحجاج ببلاغته إلى ما كان ينشده فتحول التأثير من مجرد قمع في البداية إلى وهم بالإقناع بصدق قوله ، ولا يعنينا في مجال الأدب أن نقول :إن البطش والعنف المعروف بهما الحجاج كانا الوسيلة لتحقيق الهدف ، لأنه من منظور أدبي محض أدت الخطبة الوظيفة المنشودة وهو التأثير وحمل المستمع على تنفيذ ما يريده الخطيب. إذ أن الجمهور انصاع له بمجرد الشعور بقوة الخطاب والعزم الجاد على تنفيذ ما لوح به.

وأخيرا وفي سياق الحديث عن الفرق بين خطابي علي والحجاج نسمع صوت "أوستن" في معرض كلامه عن أفعال الكلام وتفريقه بين الأشكال أو الطرائق التي يخرج أو يؤدى بها الكلام فيما سماه ب "فعل الكلام Locutionary act، وقوة فعل الكلامllocutionary act، ولازم فعل الكلام perlocutionary act ، وإذا كان القسم الأول لديه يعني مجرد الفعل اللفظي فإن ما يعنينا في تحليل الخطاب ويدعم عملية التأويل القسم الثاني والثالث وهنا يفرق أوستن بينهما بقوله:" وإذن ينبغي أن نميز قوة فعل الكلام عن لازم فعل الكلام، كأن نفرق بين عبارتي (وفي حال قولي كذا ،فقد وقع التحذير من جانبي)، وبين عبارة (بواسطة قولي كذا، كنت قد أقنعته أو كففته عن العمل.)..... ويقينًا إن ما يفهم من لازم فعل الكلام (لغاية إنجاز التصرف) يكون من خارج التلفظ بالعبارة."[٢٩]

لقد اعتمد علي رضي الله عنه ما سماه أوستن – في كتابه أفعال الكلام– بقوة فعل الكلام illocutionary act وهو الذي يراد به الفعل الذي يقصده المتكلم إجمالا دون عزم على إيقاع أمر مادي معين، إذ كانت الخطبة أشبه بالنصيحة ولوم المستمعين على عدم الأخذ بها.

بينما اعتمد الحجاج نوعا آخر من أفعال الكلام وهو الفعل المترتب عن النطق perlocutionary act وهو التأثير الذي يكون للفعل اللغوي في المتلقي، بالتأثير والانصياع أو الكف عن ممارسة فعل يخالف مراد المتكلم.

لقد كانت الخطبتان موجهتين إلى أهل العراق، كما جمع بينهما ذلك الموقف الغاضب من المتلقين على الرغم من اختلاف السبب، واختلاف موقف الجمهور من الخطيبين، إلا أننا لاحظنا نوعا من السماحة الموجودة في خطبة علي، على الرغم من شدة غضبه وحزنه، إلا أنه لم يتوعدهم بمعاملة عنيفة أو بطش وجبروت منه تجاههم.

على حين تجاوز الحجاج إلى اللهجة العنيفة الماضية القاطعة عمد فيها إلى إيقاع الهلع والرعب في نفوس جمهوره بكافة الوسائل كما سبق القول،" حيث عمد إلى غريب الصور وغريب اللفظ وكأنما قصد إلى إثارة الرعب والفزع في نفوس جمهوره، كما كان الحال عند كهان الجاهلية في أسجاعهم عبر العصر الأول." [٣٠]

"لقد ساد التهديد بالحرمان والقتل عند خطباء بني أمية ....، كما وقفوا يلوحون بعذاب الخليفة ونعيمه"[٣١] ، ورصد هذا البحث كيف استطاع الحجاج السيطرة على المعارضين، بينما لم يحقق علي رضي الله عنه ما أراده. وهو أمر برهنت عليه المصادر التي أوردت خطبتي علي والحجاج من جهة، كما برهن عليه التاريخ من جهة أخرى.

حيث لاحظنا في خطبة علي رضي الله أنها كانت ذات رنة انفعالية يائسة سرت فيها هذه الروح من المرسل إلى المتلقي ، فلم يستطع أن يستميل إليه المتلقين– الموالين– فينصاعوا لما أراد، باستثناء ذلك الرجل الذي قام إليه ملبيا. بينما نجح الحجاج في السيطرة على المتلقين– المعارضين– من خلال خطبته التي تشابهت في مواطن كثيرة مع روح الخطاب الشعري، تلك الروح متعددة الأبعاد، عميقة الدلالة والمشحونة بطاقات البلاغة، والتعبيرات اللغوية، بل تجاوز لغة النثر إلى لغة الشعر المترعة بالرموز، فاستطاع من خلالها رسم العديد من لوحات التخويف، التي هيمنت وبسرعة على أذهان مستمعيه .

لقد قمنا في هذا البحث بمحاولة لفهم عملية التلقي وأثرها على المخاطبين عن طريق التأويل الذي رسم له معالم طريقه النصٌّ وما أحاط به من ظروف سياقية مختلفة، كمناسبة النص وحال المخاطبين وأهوائهم وطريقة استجابتهم ، مرتكزين على الحِجاج وبعض آلياته بوصفه حجرا أساسيا بنية الأسلوب الخطابي.

هوامش البحث:

١– إسماعيل بن أبى الفداء، تاريخ أبى الفداء– جـ ١ ص ٢٦٤، المطبعة الحسينية المصرية.

٢– المرجع السابق، ص ٢٧٥.

٣–محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، المجلد الثالث، ص ١٠٧، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٤– راجع: ابن كثير ، البداية والنهاية دار عالم الكتب، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م ج – ١٢ ص ٥٠٧/ وابن عبد ربه، العقد الفريد دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص ٢٠٩، ط١.

٥- راجع البداية والنهاية ج ٩ " ذكر الأعمش عن ابن أبى زناد كان فقهاء المدينة أربعة : سعيد بن المسيب وعروة ابن الزبير وقبيصة بن ذويب وعبد الملك بن مروان قبل أن يدخل الامارة "

٦ – ابن كثير ، البداية والنهاية ج –١٢ ص ٥٠٧.

٧- –شرح نهج البلاغة ، ابن ابي الحديد المعتزلي، تحقيق: محمد ابراهيم، دار الكتاب العربي – الطبعة: الأولى ٢٠٠٧ ج٢،ص٧٤–٧٥، وانظر أيضا جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد ذكي صفوت، ج١، ص٤٢٧ المكتبة العلمية – بيروت لبنان، ط١.

٨- الكامل، المبرد ص ٣٥١ج١، ت محمد أحمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، وانظر أيضا البيان والتبيين دار مكتبة الهلال، بيروت ١٤٢٣هـ،ج٢ ، ص٣٠٩،٣١٠.

٩- يقصد بهم معاوية بن أبي سفيان وأتباعه ،إذ أن مناسبة هذه الخطبة بعدما أغارت خيل معاوية بن أبي سفيان على الأنبار بقيادة عثمان بن عوف؛ فنهبوا وحملوا كل ما كان بالأنبار من أموال وقتلوا عامل علي ويدعى حسان بن حسان البكرى – راجع الخبر في تاريخ أبى الفداء.

١٠- العقد الفريدج٣ ص١٧.

١١- حول الفكرة راجع الموقع الإلكتروني لمجلة جامعة دمشق المجلد ٢٩ العدد (١-٢) يوسف محمود عليمات بلاغة الحِجاج في النص الشعري.

١٢- راجع بحث: عن التأويل وتطور مفهومه في النص الديني والأدبي قصي مجدي سليم www.almoltaqa.com

١٣- أعني بالمتلقي الافتراضي أننا لم نكن بالنسبة للخطيب – فئة مستهدفة ليصل إلينا ذلك الشحن الرمزى كما وصل للمتلقي.

١٤- دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، ترجمة محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ، الجزائر ط١، ص١٧.

١٥- – إحسان النص – الخطابة العربية في عصرها الذهبي، دار المعارف، ص ١٩٠.

١٦- صلاح فضل، إنتاج الدلالة الأدبية– مؤسسة مختار للنشر والتوزيع القاهرة ط ١ ١٩٨٧ ص ٣٥.

١٧- ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي –ص ٢٥ الإصدار الأول ١٩٩٧ – دار الشروق للنشر والتوزيع – عمان الأردن.

١٨- الطبري، مجلد ٣ ص ١٤٩.

١٩- ربيعة العربي، الحوار المتمدن، العدد الإلكتروني ٤٠٤٦ ، ٣-٢٠١٢ www.ahewar.org.

٢٠- تاريخ الطبري، ص ١٤٩، وقد كانت الخطبة من علي في أهل الكوفة عندما أمرهم بالنهوض لإغاثة عامل منطقة عين التمر إلا أن الناس تثاقلوا ولم يجيبوه

٢١- * حيدي حياد: أمر بالانصراف والروغان تقوله للهارب والمتشبث برأيه

٢٢- الجاحظ، البيان والتبيين، ج٢ ص ٥٥.

٢٣- يذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد أن فراس بن غنم بن مالك بن كنانة، من أنجد العرب، كان الرجل منهم يعدل بعشرة من غيرهم.

٢٤- الجاحظ ، البيان والتبيين، ص٣٧، ج٢.

٢٥- قصي مجدي سليم، عن التأويل وتطور مفهومه في النص الديني والأدبي، وراجع أيضا: محمد القاسمي، القراءة والتأويل في النقد الأدبي الحديث http://www.aljabriabed.net

٢٦- بشير أبرير، التحليل السيميائي للخطاب الإشهاري، مجلة الرافد، تصدر عن دائرة الثقافة والإعلام ، الشارقةwww.arafid.ae/P31-9-2010

٢٧- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، ص ٤٥٧، ط١ ٢٠٠٤.

٢٨- البيان والتبيين ، ج٢ ص ١٨٤.

٢٩- أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة.. كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قينيني، أفلايقيا الشرق، ١٩٩١م، ص١٣٢.

٣٠- مي خليف، تطور الآداء الخطابي بين عصر صدر الإسلام وبني أمية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٦، ص٧١.

٣١- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، أفريقيا الشرق – المغرب ٢٠٠٢ص٥٩.

قائمة مراجع البحث:

أولا المراجع العربية: مرتبة أبجديًا حسب المؤلف:

١- ابن عبد ربه ، العقد الفريد، (أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه)، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٤هـ، ج٢ ، ط١.

٢- ابن كثير، (اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي)،البداية والنهاية ، دار عالم الكتبسنة النشر: ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م ، ج٩ وج ١٢.

٣- أبو الفداء(عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد)، تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر)، المطبعة الحسينية المصرية ، ط١ د.ت.

٤- إحسان النص، الخطابة العربية في عصرها الذهبي، دار المعارف، ١٩٦٣، ط١.

٥- الجاحظ(عمرو بن بحر الكناني)، البيان والتبيين، دار مكتبة الهلال، بيروت ١٤٢٣هـ،ج٢.

٦-صلاح فضل، إنتاج الدلالة الأدبية- مؤسسة مختار للنشر والتوزيع القاهرة ط ١ ١٩٨٧.

٧- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)،تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، المجلد الثالث، ط٢.

٨-عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، ط١ ٢٠٠٤.

٩- المبرد،(أبو العباس محمد بن يزيد)، الكامل في اللغة والأدب، ت محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة،ج١.

١٠-محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجا، أفريقيا الشرق – المغرب ٢٠٠٢.

١١- محمودأحمدنحلة،افاقجديدةفيالبحثاللغويالمعاصر،دارالمعرفةالجامعية،الإسكندرية،٢٠٠٢.

١٢- محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمّان ١٩٩٤، ج٤، ط٢ م.

١٣- مي يوسف خليف، تطور الآداء الخطابي بين عصر صدر الإسلام وبني أمية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٦م.

١٤- ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق للنشر والتوزيع – عمان- الأردن، الإصدار الأول ١٩٩٧.

مراجع أجنبية مترجمة مرتبة وفقا لاسم المترجم:

١٥- عبد القادر قينيني (ترجمة)، أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة .. كيف ننجز الأشياء بالكلام، ، أفلايقيا الشرق، ١٩٩١م.

١٦- محمد خير البقاعي(ترجمة وتعليق)، بحوث في القراءة والتلقي ، فيرناندهالين وآخرون ، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط١ ١٩٩٨.

١٧- محمد يحياتن(ترجمة)، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، الدار العربية للعلوم ، الجزائر ط١،

مجلات ودوريات: مرتبة أبجديا وفقا لاسم الكاتب

١٨- بشير أبرير، التحليل السيميائي للخطاب الإشهاري، مجلة الرافد، تصدر عن دائرة الثقافة والإعلام ، الشارقة www.arafid.ae/P31-9-2010

١٩- ربيعة العربي، الحِجاج، مقال منشور في الحوار المتمدن، العدد الإلكتروني ٤٠٤٦، ٣-٢٠١٢ .www.ahewar.org

٢٠- محمود يوسف عليمات، بلاغة الحِجاج في النص الشعري، مقال منشور في مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٩، العدد(١-٢) النسخة الإلكترونية.http://www.damascusuniversity.edu.sy

مقالات منشورة على المواقع الإلكترونية:

٢١- قصي مجدي سليم، عن التأويل وتطور مفهومه في النص الديني والأدبي، بحث منشور على الموقع الإلكترونيwww.almoltaqa.com

٢٢ – محمد القاسمي، القراءة والتأويل في النقد الأدبي الحديث http://www.aljabriabed.net/